

الأخلاق في القرآن فروع المسائل الأخلاقية

[407] خط الإيمان والطاعة. هذا وقد سمع أيوب الكثير من التعريض به وبشخصيته، ولعلّ هذه المصيبة كانت عليه من أعظم المصائب، وأحياناً كان عبداً لبني إسرائيل ورهبانهم يأتون لرؤيته ويقولون له بصراحة : ما هو الذنب العظيم الذي ارتكبته حتّى ابتلاك ؟ بهذا الابتلاء والعذاب الشديد ؟ ولكن هذا النبي العظيم لم يفقد صبره بل كان يعيش الانضباط الأخلاقي أمام نوازعه النفسية ويلهج لسانه بشكر الله تعالى ويتعامل مع كلّ هذه المصائب من موقع الشكر لا من موقع كفران النعمة والشكوى والجزع، وبعد أن مضت عليه سنوات عديدة وهو يتحدى هذه الصعاب العظيمة دعا الله تعالى لأن يكشف عنه هذا البلاء كما تقول الآية : (وَإِذْ كُورَ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ۖ إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصُوبٍ وَعَذَابٍ). فعندما ختم هذا النبي العظيم جميع مراحل هذا الامتحان الإلهي الكبير ووقف أمام البلاء والمصائب المختلفة كجبل من الصبر والاستقامة وأخلج الشيطان الرجيم من أن ينال منه ولو كلمة جزع وشكوى واحدة حتّى ينس منه، عندها فتح الله تعالى أبواب رحمته عليه، وعاد عليه كلّ ما فقد من المال والأولاد والمواهب الدنيوية الأخرى بل ضاعفها له أضعافاً مضاعفة، والأهم من ذلك أنه نال من ذلك مقاماً عظيماً في دائرة القرب الإلهي ونال وسام "رَبِّ الْعَالَمِينَ" الذي لا يحدّ له. وذكر المفسّر المعروف "ابن مسعود" : إن أيوب (عليه السلام) كان "رَأْسُ الصَّابِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (1) وهكذا سجّل أيوب لنفسه هذا الشرف والافتخار على طول التاريخ البشري. ولا ينبغي التساهل في المرور على هذا المطلب، وهو أن إنساناً كان يتمتع بجميع الامكانيات المادية والدنيوية، وفجأةً فقد كلّ شيء وجلس صفر اليدين حتّى أنه لم يسلم من تعريضات قومه من الأصدقاء والأعداء وكناياتهم الموجهة التي كانت تؤلمه أكثر من طعنات السيوف والخناجر ومع ذلك لم يصدر منه حتّى كلمة واحدة على خلاف رضى الله تعالى بل كان لسانه لهجاً بذكر الله وشكره، وفي نهاية أمره قال كلمة واحدة تعبر عن دعائه 1. تفسير روح البيان، ج 8، ص 45 ذيل الآية.